ذكرى محمد علي الاكبر

محمد علي ونابليون

ولد القرن التاسع عشر والثورة الفرنسية تتمخض عن نابليون ابنها الشرعي الذي ما لبث ان سوّى حسابها واخذ امرها بيده وواصل السعي وهو هو احد افراد الشعب حتى تسنم مركزاً ظهر به على الذين ما وصلوا الى عروشهم الاّ فوق رؤوس متوجة تستند عظمتها واحكامها من لدن الله تعالى . هنا بلغت الثورة الفرنسية المتجسمة في شخص نابليون سمت النجاح فنفذ نورها الى قلوب الشعوب في كل صقع ووصل كهرباؤها الى اعماق النفوس من حيث تدري ولا تدري . حتى اذا ما تألبت الرؤوس المتوجة على نابليون وتمكنت في النهاية من امره وكسر جنده وانظمته انبلجت الحقيقة وبقيت روح الثورة عاملة بين الامم التي استضاءت بهديها رغم مصادرة الملوك لها في حلفهم المقدس وغيره . وما كان في مقدور حكومات اوربا ان تتسلط على نفوس الناس او تطفىء نور العرفان او تمحو حقائق التاريخ من صدور مستوعبيها . لذلك سرعان ما قامت الثورات في العالم المتمدين وسرعان ما تشخص نابليون الملك في غيره من الافراد — وزراء وجنود ما جرت في عروق ابائهم او اجدادهم قطرة من دماء الملوك من قبل ولكنهم وصلوا الى ما وصلوا من سلطان وملك بمحض جهادهم ونبوغهم . مثل هؤلاء برنادوت في السويد (اسوج) وميرا في ايطاليا وكابودستريا في اليونان ولويس نابليون في فرنسا ومحمد علي في مصر

ان محمد علي الاّ نابليون اخر ولدته الثورة ايضاً ولكن في الشرق . فلولا الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر ما وطىء محمد علي ارض مصر والحملة الفرنسية من بنات افكار الثورة قامت بها الثورة في شخص نابليون فلما اضطر الى التكيص الى فرنسا ولحقته الحملة الفرنسية بأكملها بعد ان فتحت عهداً جديداً لمصر ظهر محمد علي على مسرح السياسة بمصر يريد تنفيذ سياسة نابليون في الشرق بكل حذافيرها

ولقد نجح محمد علي حيث اخفق نابليون : ساد الشرق بطريقين طريق البحر

الاحمر وطريق نهر الفرات . وجمع العالم العربي تحت لوائهِ وكون دولة تمتد من جزيرة كريد غرباً الى خليج العجم شرقاً ومن جبال طوروس شمالاً الى بلاد سنار جنوباً . حاصرت جنوده حصن عكاء فما لبثت ان سقطت في يده وانتصرت على جيوش السلطان في مواقع عدة كان محمد علي على اثرها قاب قوسين او ادنى من عرش الخلافة

نعم نال محمد علي من لدن الدول ما نال نابليون نفسه فقد تحداها حتى تحالفت عليهِ في آخر الامر وارغمتهُ على الخضوع ولكن نظر محمد علي الى الظروف المحيطة بهِ بعين الحكمة والحذر فابدل اخفاقه نصراً وثبت لنفسهِ بموافقة الدول عرشاً لا يزال يتوارثهُ نسله الى الآن بينما خسر نابليون باخفاقه في واترلو كل شيء

ليست المقارنة بين نابليون ومحمد علي ضرباً من المبالغة او المغالطة فاوجه الشبه بينهما كثيرة رغم اختلاف احوالهما اختلافاً بيناً. والمطلع على المستندات السياسية التي دارت بين ممثلي الدول ومحمد علي اثناء ازمة ١٨٤٠ يرى ان كثيرين من ساسة ذلك العصر وهم ينصحون او يهددون محمد علي لم يترددوا في الاشارة الى العواقب الوخيمة التي قد تعود عليهِ كما عادت على نابليون من قبل من جراء مخالفتهِ للدول

اما السحر الشخصي الذي كان لاسم نابليون على محمد علي فقد كان عظيماً بدرجة جعلتهُ يدرس تاريخ نابليون درساً وافياً من اوثق الكتب الفرنسية وظل نابليون القدوة والمثل الاعلى الذي اختارهُ محمد علي لنفسهِ طول حياتهِ وبقي للنهاية ينتفع بخدمات رجال نابليون والذين اضطهدتهم الحكومة الفرنسية عقب عودة الملكية فولوا وجوههم شطر مصر ومصلحها العظيم

محمد علي ومصر

كما ان نابليون بونابرت الايطالي جاء فرنسا وهو جندي وما لبث ان اصبح ملكاً مطلقاً بارادة الشعب الفرنسي كذلك جاء محمد علي الالباني الى مصر وما هي الا خمس سنوات حتى اصبح صاحب الامر بارادة الشعب المصري. فمحمد علي مصري مهما قيل انهُ البانى او تركي كما ان نابليون فرنسي مهما قيل انهُ قورسقي او ايطالي

لم يدخل محمد علي مصر فاتحاً ولم يملكها بحد السيف انما حقه مستمد من اهل مصر الذين نادوا بهِ حاكماً واجبروا الباب العالي على الموافقة. لقد كان يوم ٥ صفر

سنة ١٢٢٠ (مايو سنة ١٨٠٥) بمصر من الايام التاريخية المشهورة فيه وضعت مصر بيدها الحجر الاساسي لحريتها. ففي ذلك اليوم تمثلت طوائف مصر المختلفة من علماء ومشائخ وصناع وتجار وساروا في شوارع القاهرة الى منزل محمد علي بهيئة مظاهرة وطنية عظمى منادين بسقوط العثمانلي ومعلنين رغبتهم في تولية محمد علي ثم قصدوا القلعة وهناك نصبوه عليهم والياً. وعلى ذلك يكون محمد علي لفظة الشعب المصري وكلمته الفاصلة في موضوع الحكم في مصر

منذ ذلك التاريخ اصبح محمد علي بطل مصر الفذ وما زال يعمل على احياء وتقوية مصر زراعيا وحربياً وصناعياً وتجارياً حتى اصبحت في ربع قرن بفضل مجهوداته الهرقلية وهرقل اله القوة عند القدماء — اول دولة في الشرق كله وثالث دولة بحرية في البحر الابيض المتوسط بعد انجلترا وفرنسا

وان لغريزة « التاجر » التي كانت تحرك قوى محمد النفسية لاكبر اثر في هذا النجاح المنقطع النظير. نظر محمد علي الى مصر نظر التاجر المستثمر المستعمر بالمعنى الصحيح ورأى ما عليه ارضها من الخصب وما يمكن ان تجود به من موارد الثروة اذا تعهدها بالاصلاح فوجه همه الى الاراضي فجمعها تحت امرته ثم وزعها على الفلاحين لزراعتها باشرافه وادخل الاصلاحات الحديثة والمحصولات الجديدة وحتم على الفلاح اتباعها. ثم خاف على الفلاح من اخفاقه في السوق الاقتصادية والفلاح لا علم له باساليب التجارة الحديثة فاحتكر لنفسه الاتجار في اغلب محصولات البلد مفضلاً الاضرار بمصلحة الفرد لدرجة ما على الاضرار بمصلحة البلد باجمعه نتيجة اثراء التجار والمتمولين الاجانب على حساب الفلاح المصري. وعلى كل حال كان الكسب الذي يجنيه محمد علي من وراء احتكاراته لا بد عائداً على مصر والمصريين

***

« ان الامير « التاجر » متى توافرت لديه محصولات ارضه وزادت عن حاجة بلاده وكانت له نفس نزاعة طموحة للعلا لا يطلب الا شيئين اساسيين: اسطولاً لحمل تجارته وحمايتها واسواقاً لتوزيعها فيها. تلك سنة الامم التجارية من قديم الزمان لا مندوحة عن اتباعها لانها نتيجة طبيعية لمقدمات ثابتة

سار محمد علي وفق هذا القياس المنطقي وعمل على الوصول لهذين الغرضين فبدأ ببناء الاسطول اولاً عند بولاق ثم لما اتسعت دائرة العمل اصلح النقص

الطبيعي في ميناء الاسكندرية فاصبحت محط تجارة مصر ومهد اسطولها العظيم. ثم وجه همهُ الى امتلاك الاسواق واول ما لفت نظرهُ سواحل البحر الاحمر ذلك لان السلطان كان قد طلب اليهِ اخضاع الوهابين فقام بهذه المهمة بعد ان كلفتهُ من المال والرجال ما جعلهُ يسعى في تعويض هذه الخسارة ببعض المزايا الاقتصادية فنشر سلطانهُ على سواحل البحر الاحمر وتجارة موانئهِ. ثم اراد تتميم السيادة على البحر الاحمر فجرد حملة على السودان وعند ذلك بدأ محمد علي مشروعهُ العظيم الخطير الا وهو تأليف جيش من المصريين يستعين بهِ في فتوحاتهِ بدل جنوده الالبانية التي لاقت حتفها بين هوات هضبة بلاد العرب

يا لها من فكرة علوية اتت بوافر الخير على مصر فان دخول الفلاح في سلك الجندية بعد ان عاش قروناً طويلة مستعبداً في كسر بيتهِ اخرجهُ من حالة الذل والجبن التي كان فيها وعلمهُ دروساً جديدة في النظام واداء الواجب. علمهُ الشرف الحقيقي والتنافس في سبيله. علمهُ كيف يموت في ميادين القتال. ولكن لما كان النظام الجديد عبارة عن نظريات لا يعرف منها الانسان العادي الاَّ انها ستؤدي يوماً الى الموت بمعزل عن الاهل والولد ثارت ضدهُ نفوس الفلاحين فاخذوا الى الجيش غصباً ولكن ما لبثوا ان احبوا الجندية لما رأوهُ فيها من الترغيب والرقي والمكافأة وكان محمد علي يصرف بنفسه معظم وقتهِ مع الجيش الجديد ويشترك في رحلاتهِ وتدريبهِ وتمرينهِ. واستعان في عمله بدروفتي قنصل فرنسا وبالكولونيل سيف الشهير بسليمان باشا الذي بكفاءتهِ النادرة امكنهُ ان يخرج خير جنود نظاميين. ولقد قص محمد علي مرة على معتمد انجلترا ما شاهدهُ من بوادر الرقي الادبي في جيشهِ الجديد فقال «جرح ذراع احد الجنود جرحاً بالغاً اثناء التمرين العسكري بسبب اهمال الجندي الواقف خلفه. فلما طلب اليهِ الضابط ان يخرج من الصف ليعالج جرحه ابى وقال، الآن قد اصبحت جندياً فانا اليوم غيري بالامس. وسأظل في مكاني ما بقيت في عروقي نقطة دم واحدة الى ان انتهي من واجب اليوم»

***

غير ان للجيوش لوازم وحاجيات لا بد من قضائها اذا كان الغرض من تأليف الجيش وطنيًّا اقتصاديًّا. رأى محمد علي حاجة الجيش الى مدارس مختلفة لتخريج مختلف الضباط والى مستشفيات لتمريض المرضى والى معامل لتوريد ما يلزم من

اسلحة ومؤن وذخيرة والى مصانع لامداد الجيش بما يحتاج اليهِ من اقمشة وملابس واحذية وادوات مختلفة ووجد في كل ذلك فرصة قد تعود بالنفع المادي والادبي اذا تولت مصر تقديم ذلك كلهِ فعلت همتهُ الشماء الى مستوى آمالهِ العظيمة واخذ ينفذ مشروعهُ الفني والعلمي بارادة وسرعة عجيبتين . ولم يمض طويل من الوقت الاَّ والمصريون منتشرون في ربوع العلم والفنون المختلفة في اوربا . حتى اذا عادوا الى اوطانهم باشروا بانفسهم ما جد في مصر من مدارس ومعاهد ومصالح ومستشفيات ومعامل ومصانع مختلفة تنقل مصر من حالتها الهمجية الاولى الى حالة الرقي الحديث

اما الجيش فسار ذكرهُ شرقاً وغرباً حاملاً لواء النصر والمدنية اينما حل بقيادة بطله ابراهيم باشا . فدان لمحمد علي السودان وبلاد الشام باكملها واقليم اطنه الصغرى وبلاد العرب حتى خليج العجم وكريد . اما الاسطول فقد نما وترعرع على اثر امتداد سلطان مصر السياسي والتجاري واصبح بفضل يسُّون وسيريزي وموجل يضارع ارقى اساطيل العالم . من ذلك يتبين كيف كان الجيش اداة التمدين في مصر فلولاهُ ما تمت الاصلاحات الشاملة التي غيرت وجه مصر ولولا محمد علي التاجر ما كان محمد علي الاكبر

محمد علي والخلافة ودول اوربا

لم يهب الله الاسلام بعد الخلفاء الراشدين فاتحاً امتد لهُ من السلطان والذكر ما امتد لمحمد علي ولولا ان حق الخلافة كان مقصوراً من قديم على الاسرة العثمانية ما كان هناك امير احق بالخلافة منهُ لما أوتيهُ من القوة والعصبية واجماع الناس على محبتهِ احتراماً او خوفاً . وكان محمد علي اعلم الناس بمركزهِ الحقيقي ازاء الخلافة فلم يقصد يوماً من الايام تغيير هذا المركز الذي طالما استفاد منهُ لانهُ بتبعيتهِ للخلافة كسب احترام الدول وولاء الشعوب التي دخلت تحت حكمهِ ونال رضاء وتعضيد كثيرين من العثمانيين. اما ما يعزى اليهِ من رغبتهِ في تنصيب نفسه خليفة فليس في التاريخ ما يؤيدهُ . اللهم الاَّ في فترة الحروب الشامية الاولى لما اخذ السلطان جانب عبد الله باشا والي عكاء واصدر حكم العزل والطرد على محمد علي وابنهِ وارسل الجيوش لمحاربتهما . حينئذٍ فكر محمد علي حقيقة في التخلص من السلطان محمود لا من الخلافة اذ اعلن عزمهُ على عزل محمود الثاني وتولية ابنهِ

عبد المجيد مع تقلده هو منصب نائب الخليفة لان عبد المجيد كان قاصراً . ودل على رغبته هذه بان امر شريف مكة باصدار امر الحرمان ضد السلطان محمود . ولكن ما لبث ان عادت العلاقات ثانية بين التابع والمتبوع بالرغم مما كان في نفسيهما من البغضاء والحسد. فلو كان مشروع الخلافة من تصميم محمد علي لسهل عليه تنفيذه لما رابط ابرهيم وجيوشه المنصورة عند كوتاهيه على مقربة من الاستانة وهي وقتئذٍ في حالة ثورة ضد الحكومة . وكانت الساعة اذ ذاك اوفق الاوقات للوصول الى الغرض لانهُ من المؤكد ان انجلترا وفرنسا كانتا تساعدانه ضد اي عمل عدائي من جانب روسيا او النمسا او عما معاً ومع ذلك فان خطة محمد علي كانت ان تقف جنوده عند كوتاهيه حتى تجاب مطالبهُ . وان في كل ما بدا من محمد علي من الحذر والتؤدة وحسن المعاملة في هذه الازمة لبرهان واضح على انهُ كان يميل الى المحافظة على بقاء الخلافة العثمانية. غير ان الصلح الذي تم بين محمد علي والسلطان كان صلحاً مسلحاً وكان السلطان محمود ممتلئاً صدره حنقاً يتحين الفرص للانتقام فغضب محمد علي واصبحت العلائق متوترة بينهُ وبين السلطان مرة اخرى

ولما رأى محمد علي ان علاقتهُ بالسلطان منذ سنة ١٨٣٣ قد بدأت تلفت انظار دول اوربا وتنال مركزاً في السياسة الاوربية شرع يخاطب الدول في ١٨٣٤ بشأن اعلان الاستقلال عن السلطان الذي آذنهُ بالعدوان .غير ان الدول نصحت لهُ ان يعدل عن مثل هذه الافكار التي لا تسمح لهُ السياسة الاوربية بتحقيقها . ولكن ذلك لم يثن محمد علي عن عزيمته فجدد الطلب مرة اخرى في ١٨٣٨ معلناً عزمه على الاستقلال ولما لم يصادف طلبهُ قبولاً عمد الى طرق الموضوع من باب آخر فصرح للدول ان مقصدهُ الاول هو حفظ حقوق اسرتهِ بعد موتهِ وانهُ مصمم على جعل حكومة مصر وما يتبعها وراثية في اعقابه وانهُ سينتظر وقتاً كافياً لجواب الدول على ذلك

ثم استعرت نيران الحرب ثانياً بين محمد علي والسلطان واحرز محمد علي انتصارات متوالية فبعد موقعة نزيب مات السلطان محمود الثاني وهو المحرك الاول للعداء ثم سلم الاسطول العثماني طوعاً عند الاسكندرية لمحمد علي فاصبح قابضاً على ناصية الامور بيده . وكادت المفاوضات بينهُ وبين الباب العالي تنتهي لحصولهِ على كل ما يريد وهو ملك مصر والشام بحق الوراثة لولا المذكرة التي

قدمتها الدول مجتمعة في ٢٧ يوليه سنة ١٨٢٩ وفيها وعدت السلطان بالمساعدة في هذه الازمة وطلبت منهُ عدم عقد اية شروط مع محمد علي مالم توافق الدول على ذلك

بذلك دخلت المسألة المصرية في دورها الدولي اذ اوقف كل شيء انتظاراً لقرار الدول . ولما دارت المفاوضات ظهر ان اجماع الدول الذي ظهر عند تقديم المذكرة لم يكن اجماعاً واقعياً وبدأت بوادر الخلاف تنبع بين انجلترا وفرنسا خصوصاً حتى انتهى الامر بانتصار بامرستون وزير خارجية انجلترا ومدير دفة السياسة في هذه الازمة . وكان من رأي بامرستون ان يبقى للدولة العثمانية كيانها ويحفظ للسلطان استقلالهُ وان يحول دون تملك محمد علي لاي اقليم سوى مصر وملحقاتها في افريقا وان يكتفي بمنح محمد علي حكومة مصر وراثية في اسرته واذا اقتضى الحال فلا بأس من توليتهِ حكومة عكاء مدة حياته . فانضمت روسيا الى هذا الرأي وكذلك النمسا وبروسيا . اما فرنسا فاصرت على طلب حكومتي مصر والشام لمحمد علي فارتاب بامرستون في مقاصدها وعقد معاهدة لندرة ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ من غير اشتراك فرنسا وكادت تفضي الحال الى حرب اوربية شعواء من اجل محمد علي لولا ظروف طرأت لم تكن في حسبان احد الا بامرستون . ذلك انهُ اتضح للعالم انهُ لم يكن لمحمد علي بمفرده في مصر وفي سوريا قوة تمكنهُ من مقاومة الحلفاء مدة طويلة . والامر الثاني ان فرنسا التي ملأت العالم صياحاً وجلبة من اجل محمد علي تقهقرت في وسط الازمة لان سياسة ملكها لويس فيليب لم تتفق مع خطة تيبرس رئيس حكومة فرنسا وقتئذٍ وكان تيبرس يرمي الى تعضيد محمد علي الى ان تستعد فرنسا فتدخل الحرب ضد الحلفاء وتملي شروط الصلح. فاستقال تيبرس ودارت الدائرة على محمد علي وتشجعت تركيا وارادت القضاء على محمد علي سياسياً ولكن الدول اوقفتها عند حدها لما رأت ضرورة بقاء حكومة محمد علي وذريته من بعده في مصر ضماناً للسلام العام في الشرق فكان ما ارادت الدول لمصر ولمحمد علي. قال تيبرس في مذكرتهِ لدول الاتفاق بشأن محمد علي « ان حكومة فرنسا تعتبر وجود محمد علي كقوة سياسية في العالم امراً ضرورياً ولا بد منهُ حتى يكمل التوازن الموجود بين حكومات العالم وذلك بسبب سعة الاقاليم التي يحكمها والبحار التي تحت سلطتهِ »

محمد رفعت

استاذ التاريخ بالمدرسة التوفيقية